ضَعفُ مَنَاعةِ الثَّقَافةِ في غِيابِ الدِّيمُقراطيَّة

سعيد مضية

يمكن تشبيه ثقافة المجتمع بالماء؛ يرقي ويندفع للأعلى بقوة مضخة دافعة، بينما يأسن إن ركد أو يهبط وينحط إن ترك ينساب. يصلح التشبيه على أوضاع مجتمعاتنا. في مجتمعاتنا، تختلف سيرورة الثقافة عنها في مجتمعات البلدان المتقدمة، حيث تشكلت لها قاعدة مادية معاصرة. فقد انطلقت ثقافة الجمهور صاعدة على حزام ناقل من القيم المعرفية والجمالية والأخلاقية، ومن معايير أرستها وعززتها التطورات العاصفة الاقتصادية والعلمية والسياسية، وكذلك الحركات الفكرية والنظريات الاجتماعية والتربوية. الطبقة العاملة ربيبة الصناعة منتج العلم والتقنية المتطورة؛ وهي بذلك حاضنة للثقافة العلمية؛ ويمكنها قيادة النضال الثقافي في مجتمعاتها؛ بينما تخلو المجتمعات النامية من شريحة اجتماعية تُدخل العلم في حياتها العملية، ، وإن وجدت فلا تتقاطع أنشطتها مع أنشطة بقية النماذج الاقتصادية؛ ومن ثم يضعف تأثيرها في إدخال المنهجية العلمية في الفكر والحياة الاجتماعية. لم تشهد مجتمعاتنا العربية منجزات الحضارة الصناعية وما لازمها من التقاليد العلمية، فبقيت مرتبطة بنماذج العصر الوسيط في الاقتصاد والسياسة والعلاقات الاجتماعية والثقافة والتربية، تبرحها حيناً دون قطع، فترتد منكفئة إلى رابطها التاريخي. ومن ثم تبرز الحاجة الماسة إلى جهود المثقفين ومعاهد العلم وقوى التغيير الديمقراطي، بصفتهم أهم الأدوات الأساسية لترقية الثقافة وإغنائها وتوسيع تأثيرها الاجتماعي التقدمي.

الثقافة هي حياة وحركة، وهي القوة الدافعة للتطور والتنمية البشرية المستدامة. تلتحم إبداعات المثقفين الديمقراطيين مع التجربة العملية للجماهير الكادحة في نشاط سياسي تقدمي التوجه، فتتسارع حركة التقدم الاجتماعي على إيقاع الحركة الشعبية، وتغتني الثقافة بالمفاهيم والقيم الديمقراطية. لم ينجز بعد التحول الإستراتيجي النوعي في المجتمعات العربية؛ وبذا فالتدهور يكون مروعاً مع انتكاس حركة الجماهير واتساع الفجوة بين الجماهير وقوى التغيير التقدمي. هذا ما قدمته التجربة المتعثرة لحركة التحرر الوطني في فلسطين والوطن العربي.

ثقافتان تتصارعان على الصعيد العالمي وداخل كل مجتمع، والتجربة المتعثرة للأقطار العربية قدمت المثال على التدهور العام جراء ضعف مواقع الثقافة الوطنية الديمقراطية.

من المحزن القول إن الوطنية الفلسطينية بقيت طوال حقب متلاحقة معزولة عن الثقافة والمثقفين الفلسطينيين. وقبل تقديم عرض تاريخي لسيرورة حركة التحرر الفلسطينية، يجدر أولاً تأمل تجربة الماضي القريب: فقد حرصنا في مجال التنظيم الحزبي، وداخل السجن على تصليب المناضلين وتزويدهم بالخبرة أمام المحقق وأثناء المحاكمة، وفي الزنازين. المعتقل عيّنة لبيئته الاجتماعية يعكس، بموقفه أثناء الاعتقال والتحقيق والمحاكمة، مدى صلابة البيئة الاجتماعية التي انطلق منها. إن التحدي الذي يبديه المناضل لإرهاب محققيه وتعسف قضاته العسكريين وقسوة سجانيه، من شانها أن تسهم في تقرير خيارات الاحتلال، وكل عدو يتصدى لطموحات الجماهير. وطوال فترة الحبس الإداري لاحظنا، مع الأسف، انهيار الأغلبية الساحقة من المعتقلين لدى المواجهة الأولى مع المحقق. والسبب الأساس يكمن في تغييب التنظيم في الممارسة العملية، على الرغم من كثرة ترداد المفهوم ومشتقاته في النشاط السياسي الفلسطيني.

في السجن، التقيت المجاهد غازي الحسيني الذي اعتقل في بلدة بيت أمّر. كان يتعلم في ألمانيا الغربية قبل أن يترك دراسته ويتوجه إلى أرض الوطن. اعتقل في بلدة بيت أمّر، مع زميله المهندس عدنان أبو عيّاش. قال لي كم كان مؤلماً أن الجمهور الألماني ناكفنا أثناء سيرنا في الشارع، واستفزنا بعبارات من الخطاب العربي. كان يحلو للخطاب العربي ملء خواء القوة المادية بجمل لا غطاء لها، فيسف ويشتط في التهديد والوعيد. وعنه نقل الخطاب الفلسطيني المادة والأسلوب. طفقت إسرائيل تروج في الخارج مقتطفات من الخطاب العربي والفلسطيني، بينما جنودها يبطشون بالجماهير في الأراضي المحتلة. حكم غازي بالسجن ثمانية عشر شهراً، ونقل إلى سجن الرملة؛ وقبيل انتهاء فترة الحكم أعيد إلى سجن الخليل. كنت قد أنهيت فترة اعتقال أولى واعتقلت ثانية قبل بضعة أشهر؛ فالتقينا ثانية في سجن الخليل، حيث أعيد تمهيداً للإفراج عنه وإبعاده. حدثني عن خبرته الجديدة في السجن، فقال: لا يكفي أن يكون الفدائي متحمساً، بل الأهم أن يكون واعياً. حقاً، فضعف الوعي لدى الفدائي، وهو في قبضة المحقق والمحكمة قد ضاعف من غطرسة المحتل، وعمّق نظرته المستخفة بالمقاومة، وفتح شهيته على مزيد من النهب والتوسع الاستيطاني.

وبعد ترحيل غازي الحسيني إلى سجن الرملة بفترة وجيزة، أحضر إلى السجن أبو علي شاهين. تردد اسمه على ألسنة مجموعة من حركة "فتح". كانت أول مجموعة من الفدائيين تقع في قبضة المخابرات

الإسرائيلية. تم القبض على المجموعة ببساطة تفشي الإهمال المحير. فكيف تغفل بهذا الشكل شروط أمن التنظيم الفدائي، والفدائي يواجه قاتلاً أو مقتولاً؟! نقل أحد أفراد المجموعة من السجن وعاد في آخر النهار ليؤكد نبأ اعتقال شاهين. تعرف عليه بناء على طلب ضباط التحقيق الإسرائيليين. أحضر أبو علي إلى سجن الخليل، ووضع في غرفة انفرادية أسبوعاً أو أكثر، قبل أن ينقل مساء ذات يوم إلى غرفة رقم 4، التي كنت من نزلائها مع سبعة عشر معتقلاً إدارياً.

لم يبق لنا حيز فيه نستلقي ونخلد للنوم. نقل إلى الغرفة رقم 4 عشرين سجيناً إضافياً، تم إخلاؤهم، كي تستوعب وجبة يبدو أنها كبيرة من المعتقلين الجدد. نقل السجناء ولم تنقل أغطيتهم؛ بات لزاماً تدبير نوم 38 سجيناً بفرش وأغطية ثمانية عشر هم نزلاء الغرفة رقم 4. تدبر النزلاء الأمر وناموا متعاكسين، قدم الواحد تحت إبط المجاور؛ وبقي لنا، عبد العزيز شاهين وأنا، حراماً لكل واحد تلفع به مسنداً ظهره للجدار. سجينان يلتقيان لأول مرة، وعلى بلاط السجن تتفاعل الأفكار والإرادات. كالعادة يبدأ التعارف بالبحث عن قاسم مشترك؛ وقدمه أبو علي موظف بالسعودية من بلدتي، حلحول، أعرفه وأعرف زوجته، تربطهما علاقة تزاور بأسرة أبي علي، حيث عمل قبل أن يأتي إلى عمان ليرسل إلى الضفة.

أمضيناها تلك الليلة من ليالي تشرين الثاني 1967 حتى الصباح نتبادل الحكايات ونتناوب الأسئلة. لأول مرة يختلط أبو علي بالمعتقلين ويحادثهم. الحديث تشعب، والحديث ذو شجون. خلية "فتح" التي اعتقل أفرادها في ليلة واحدة تتألف من خمسة عشر فرداً، بعضهم من عشيرة المناصرة في بلدة بني نعيم، والآخرون من عشيرة أبو سنينة من مدينة الخليل. تعودت أن أرى الخلية الحزبية لا تتجاوز الأربعة أعضاء. وطبيعي أن استغرب وجود مثل هذا العدد في خلية واحدة، وهي خلية كفاح مسلح، يفترض أن يكون تنظيمها أشد صرامة وأوثق انضباطاً! تساءلت مستغرباً عن سر تجميع هذا العدد في منظمة للكفاح المسلح، والتنظيم جزء مكمل للخطة السياسية. فلكل خطة سياسية ما يوازيها من نماذج التنظيم والضبط، بحيث تضمن المحافظة على سلامة المناضلين وتوفر وسائل تنمية الخبرة الكفاحية، كي يتعاظم التيار الجارف للاحتلال. حتى المنظمة السياسية يتفاوت تنظيمها بين علني وشبه سري وسري صارم، لتلافي الخسائر الناجمة عن المطاردة البوليسية. كان الرد مذهلاً وصادماً: عندما أحضرونا من السعودية قالوا لنا هذا كلاشن؛ هكذا يفكك، وهكذا يركب، وهكذا يطلق النار؛ أما التنظيم والتثقيف فلم نعرف عنهما شيئاً.

فيا حسرتنا، نحن والارتجال في عشرة مستدامة! في العام 1948، خضنا الحرب من غير تنظيم ولا تخطيط فكانت النكبة؛ و دخلنا حرب حزيران ارتجالاً وكانت النكسة، وكأن الهزائم كوارث طبيعية يستحيل تحاشيها، ثم ندخل الكفاح المسلح ارتجالاً. الخلل يورطنا في المزيد من الخسائر في حال المواجهة المسلحة. الارتجال وإغفال التنظيم لا يبشر بالانتصار يا أبا علي!

– هيك يا أبو فؤاد؟
– الأمر ليس تفكيراً رغبياً ولا قراءة في الرمل، إذ بدون تنظيم حديدي وانضباط واعٍ لا أمل لنا في مراكمة القوة التي تدحر الاحتلال. والتنظيم لا ينجز إلا مقروناً بالوعي. التنظيم والوعي شرطان لتأهيل المناضلين كي يخوضوا النضال المثابر حتى النصر. والنضال يتصاعد بقدر تنامي الروح الكفاحية. دون رفع منسوب الثقافة لدى الجماهير، يستحيل إنجاز ثورة تغير الواقع. الثورة لا تستحق اسمها ما لم تغير مزاج الجمهور ووعيه أولاً، تخرجه من العفوية والمواقف المرتجلة إلى النشاط المنضبط والمرشد بالخبرة وبالعلم. وإذا كان التنظيم والوعي متكاملان في العمل السياسي، فإنهما أشد لزوماً في العمل المسلح. ينبغي أن تشكم نزعةُ الاستقواء بالسلاح عن طريق الوعي والأخلاق. فالتنظيم والوعي شقا نواة الكفاح المغير للواقع؛ ودونهما يظل أي شكل كفاحي يدور في حلقة فارغة. ومن الأخطاء الشائعة أن يقرن مفهوم الثورة بالعنف والسلاح والجمل الثورية المهيجة للمشاعر. الثورة قد تتم بهدوء، لكن مقرونة بتخطيط يحدث تغييراً على الوعي، يتسامى به على العفوية والارتجال، مشبكاً الأيدي مع التفكير الإستراتيجي والتخطيط والتنظيم المترتب عليه. الثورية وعي عقلاني مرشّد وتنظيم للعناصر في انضباط واعٍ وملتزم.

لا بد من القول إن الميليشيات المسلحة في مواجهة الجيش المدجج هي من ابتكار لينين في أوائل القرن العشرين. إذ مع اختراع المدفعية بعيدة المدى، بات بمقدور جيش السلطة الرأسمالية تدمير المتاريس التي كان يلوذ بها العمال الثائرون. وابتكرت الحاجة تشكيل الوحدات الصغيرة المسلحة الخفيفة وسريعة الحركة تشاغل الجيش بطيء الحركة. لكن لينين أكد في حينه أن السلاح يشكل خطورة فادحة إذا لم يشكم بالثقافة والأخلاق الرفيعة. لا بد من نشاط تثقيفي يرفد حرب العصابات بالوعي الرفيع والثقافة الإنسانية.

ولم تتغير منذ ذلك الحين نظرتي المتشائمة حيال مستقبل الكفاح المسلح الفلسطيني. إذ لم أسمع أن الانضباط قد فرض على الفصائل المسلحة، وأن زناد السلاح بات يشكمه الوعي. ودون الوعي والانضباط ينحرف النضال الوطني عن غاياته. وفي 7 كانون الأول 2000، كتبت في صحيفة "الأيام" مقالة عبرت فيها عن القلق من مصير بائس للانتفاضة الآخذة بالتحول إلى فوضى مهتاجة بسبب العسكرة. وها نحن نشهد.

القطيعة

وعى المثقفون الفلسطينيون في مرحلة التنوير على مشارف القرن العشرين خطورة الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وراحوا يطعّمون الحركة المناهضة للهجرة اليهودية بالوعي، يكتبون، ويدعون لفتح المدارس وينشرون الأدب المعبر عن صراعات الواقع. وضع نجيب عازوري كتابه **يقظة العرب**، وقارن فيه بين الأوضاع المزرية للفلاح الفلسطيني والإمكانيات الهائلة المتوفرة للمستوطنين اليهود في المستعمرات الجديدة. مواطنون "يعيشون حياة خاملة ويسكنون في أكواخ نتنة، لا يعرف لون ثيابهم تقريباً، ولا يتناولون سوى وجبة طعام خبيثة واحدة في اليوم". حالة الشعب، بؤساً أو نعيماً، لا تنفصل عن سلطة معينة أرادت له البؤس أو أخذت بيده إلى النعيم. هذه الجماهير، إضافة إلى الطعام الخبيث، قابلة للتلاعب بها وشرذمتها، لأنها بعيدة عن الاتفاق وأكثر بعداً عن

التفاهم، "تكاره وتتباغض دون أن تدري لكرهها أو أحقادها المتبادلة سبباً. يستغلهم الغرباء من خلال فرقتهم، ويوطدون الاستغلال بالاحتقار". حقاً، فالجماهير التي تعاني القهر والاستغلال يدير كل فرد ظهره للآخر، ويسعى كل فرد إلى أن يسقط ما يعانيه من سخط على أقرب الناس إليه، جاره أو قريبه.

وكتب محمد روحي الخالدي تحليلاً للحركة الصهيونية، وخطب من على منبر "مجلس المبعوثان"، حيث مثل أهالي القدس وفلسطين ثلاث دورات برلمانية قبل أن يموت في سن اليفاع، يحذر من مخاطر البناء الاستيطاني في فلسطين. وكرس الصحافي نجيب نصار صحيفته **الكرمل** للتعبئة ضد المشروع الصهيوني، وأدى الأمانة كل من خليل السكاكيني ومحمد إسعاف النشاشيبي وخليل بيدس وعدد كبير من المثقفين الأدباء، ليس هنا مجال التوسع في الإشارة إلى جهودهم التنويرية. لكن يجدر التنويه بجهود السكاكيني الطليعية في أكثر من ميدان، وتفوقه وتفرده في ميدان التربية. كانت أفكاره ثورية بامتياز؛ لكنها سبقت زمنها فذهبت بذرة في قفر ينتظر تحويل المياه إليه.

انطلق السكاكيني من رؤية استشرفت صراعاً حضارياً يطول بين الشعب الفلسطيني والاستيطان الصهيوني، وتوصل إلى وظيفة مغايرة ومفهوم ثوري متقدم للتربية. في ندوة علمية عن السكاكيني عقدت في الناصرة جمعت موادها في كتاب عنوانه **خليل السكاكيني الذاكرة والوفاء**، أنقل بعض الفقرات من توجيهات السكاكيني التربوية: فقد نادى السكاكيني بتعليم يترك الطالب "يربي نفسه بنفسه ويعلم نفسه بنفسه، ويحل مشاكله بنفسه، فلا يلغي شخصية التلميذ إذ يلزمه بالحفظ والنقل والتقليد. فذلك أنسب مع الهدف الأسمى الذي آمن به السكاكيني، ألا وهو خلق متعلم مستقل قادر على مواجهة مشكلات الحياة ومعضلاتها". وقال في معرض التحدث عن رسالة التربية: ". . أفهموا التلميذ، إنه من الهيئة الاجتماعية وإنه شيء له قيمته ومكانته. أيها المدرس احترم التلميذ ناده يا سيد، إياك أن تجعله يقف أمامك وقفة الخاضع الضعيف، أشعر التلميذ بأنك عادل، وانفخ فيه من روح الرجولة ما يجعله عاملاً في المستقبل، ليست وظيفتك أيها المعلم أن تخرّج للأمة دراويش مطأطئي الرؤوس! إياك أن تكون شديد المراقبة على التلميذ، أشعره بأنك تثق به وبشرفه. غض الطرف إن ظهر منه أي شيء! لا تقل له أنت كاذب، صدقه ولو كان كاذباً" (ورقة محمد حبيب الله، ص: 82). باتت إحدى مسلمات التربية أن وظيفتها في شتى المجتمعات والعصور تتمثل في تعزيز العلاقات الاجتماعية القائمة وتطبيع الأجيال عليها، من أجل تدعيمها وتوطيد قيمها. لكن خليل السكاكيني توصل إلى وظيفة مغايرة ومفهوم متقدم للتعليم.

سعى السكاكيني إلى تجذير احترام الطفل في العملية التربوية الفلسطينية، لا يضرب ولا يهان. مارس التعليم تحدوه الرغبة في توظيفه لمصلحة تثوير الحياة لا مجرد تنويرها. فرصد نماذج للتعليم تعوّد الأجيال على الخنوع، وتستنسخ شخصياتهم واستبدادهم، فأشغل ذهنه بنموذج مغاير يدرب الأجيال منذ الصغر على ممارسة الحرية ويتعلمون من خلال الحوار، يفتح وعي المتعلم على بؤسه وقضايا وطنه، يربط الذاكرة التاريخية، ويغرس في الأجيال نزعة التمرد على البؤس والاهتمام بمشاكل الوطن وهمومه وتاريخه. "هناك مبدأ طالما دعوت إليه وبشرت به، وإني لأفخر بأني أول من دعا إليه وبشر به في هذه البلاد، اجتهاداً مني لا نقلاً عن أحد، وهو تحرير التلميذ وإحسان معاملته . . . لست أعني أنها (المدرسة) تهيئ طلابها لأن يكونوا أحراراً في المستقبل، لكنها تريدهم أن يكونوا أحراراً منذ اليوم، وإذا لم يكونوا أحراراً منذ اليوم فلن يكونوا أحراراً إلى الأبد . . . عبودية المدرسة في الحاضر تصادر المستقبل قبل أن يأتي . . . رأيت الجندي يخاف الضابط. والجندي الذي إن رأى ضابطه توقع لطمة إنما هو وليد المدرسة التقليدية" (نقله فيصل درّاج، "المثقف الحديث وصعوبات البحث عن الارتقاء"، **الكرمل**، عدد 57، خريف 1998).

المدرسة الحديثة لا تطبّع مع التقاليد والتخلف والمحافظة، ولا تهادن امتهان الإنسان واستلابه وقهره. و"المدرسة تخلق تلميذها الوطني حين تجعله يرى قضايا وطنه المشخصة وتحضه على أن يبحث لها عن حلول. تغتني الهوية الفلسطينية من خلال الاطلاع على القضايا التي تنمي في الإنسان حسه الإنساني، كي يكون مواطناً وتربط التعليم بالحاجات وتجعله يحاور قضايا الإنسان اليومية . . . لا يكون الإنسان إنساناً ما لم يكن مثقفاً، أي إذا امتلك وعياً يبين له البؤس الذي هو فيه" (المصدر السابق).

إذا أقرت البشرية التقدمية في نهاية القرن العشرين للعالم التربوي باولو فريري، من أميركا اللاتينية، بالفضل في استحداث نهج "تعليم المقهورين"، فقد استحدث خليل السكاكيني بهدوء في أوائل القرن مبدأ المدرسة الوطنية ونظام التعليم من أجل التحرر الإنساني والوطني. ولهذا وغيره، اتفق الجميع على أن السكاكيني ظُلِم وأغمض حقه. أشار الباحث الفلسطيني الدكتور أنيس الصايغ، في مقدمة كتاب **خليل السكاكيني** من تأليف الدكتور يوسف حداد، إلى الغبن الذي لحق بالرجل جراء تجاهله أو الجهل به، عربياً وعالمياً. غيب الانتداب أفكار السكاكيني التربوية تحت غطاء من الصمت؛ وبينما منح الوكالة اليهودية (هيئة الحكم الذاتي لليهود في فلسطين) حرية إدارة العملية التربوية، فقد فرض قيوداً صارمة على التربية في المجتمع العربي أقعدها عن النهوض بمهمة التنوير، وأحالها أداة ترويض للمتعلمين وتطبيع للأجيال مع الحالة المتردية.

أغفلت قيادة الحركة القومية الفلسطينية من جانبها شؤون التعليم، ولم تقدم جهداً يذكر في مجال التنوير والتربية السياسية للجماهير، وتعمدت إقصاء المثقفين؛ فبادلها المثقفون نقداً حاداً لانهماك الحركة القومية في النزاعات القبلية والاقتصار على المنافع الذاتية والتغاضي عن سماسرة الأراضي واحتضانهم. لم تبذل الحركة القومية أدنى جهد في التنظيم والتثقيف. واقتصر هذا الجهد على نشاط الشيوعيين، وكان ضيقاً ومحدوداً؛ ثم نشاط عصبة التحرر في أربعينيات القرن الماضي، ولم يمهلها الزمن كي تعطي ثمارها. أباحت الحركة القومية لعناصرها ولبعض قياداتها التعاون مع الانتداب البريطاني، الراعي للهجرة والاستيطان اليهوديين في فلسطين. بل إن البعض عمل في السمسرة لبيوع الأراضي، وأشعار إبراهيم طوقان شواهد.

واختتم الفصل المأساوي بهجرة القيادة القومية وقت الأزمة، وتركت الجماهير تحت عصف المجازر التي خططت لها ونفذتها القيادة

الصهيونية. وكانت النكبة.

نهوض وطني

أسفرت النكبة عن التحام سخط الجماهير على مؤامرة التهجير بنشاط سياسي منظم ومرشد بالعلم استهل نشاطه في بداية عقد الخمسينيات. بدأ نهوض وطني استفزه تكالب قوى الإمبريالية على تقييد بلدان المنطقة بقيود الأحلاف العسكرية وتصفية قضية اللاجئين عن طريق توطينهم في الأقطار المجاورة. والجماهير في فترة النهوض الوطني تمتلك حصافة كشف التزوير. فأثناء المواجهة مع حلف بغداد وقف حزب التحرير ضد مظاهرات إسقاط الحلف بحجة أن النضال غير جائز في غياب حكم الخلافة. قبل ذلك اكتسب حزب التحرير شعبية تعاظمت بسرعة. استقطبت خطب قادته في الجوامع جماهير حاشدة؛ ومن الريف تقاطرت الأفواج للصلاة في الجوامع، حيث يقدم خطبة الجمعة خطيب من حزب التحرير. وصدم الناس بموقف حزب التحرير المهادن من حيث المضمون لحلف بغداد؛ فانفضت الحشود من حول التحريريين. وأثناء الانتخابات البرلمانية التي جرت عقب إفشال حلف بغداد شنع المواطنون على التحريريين، وحرفت أسماؤهم، بحيث تثير السخرية. مثلاً محي حرفا الغين والنون من الاسم "غانم" فماذا يتبقى؟ وبالنتيجة مني حزب التحرير بالهزيمة في تلك الانتخابات. كان الذكاء الجمعي وروح المبادرة في الذروة أثناء النهوض الوطني التحرري؛ ثم خبا كل ذلك تحت وطأة القمع والإرهاب.

ومثال آخر: بعد اندحار حلف بغداد حدث إضراب المعلمين في الأردن. جرى الإضراب تحت إشراف نقابة المعلمين، التي قادها ممثلون للأحزاب التي قادت بنجاح المظاهرات المناهضة لحلف بغداد. لم تكن أهداف الإضراب واضحة؛ وسرب على نطاق ضيق أن السبب المباشر كمن في تعيين مدير تربية من خارج كادر التربية والتعليم. اعتبر البعض من قدامى موظفي التربية أنهم الأولى بالمركز. وفقد الإضراب التأييد الجماهيري، على الرغم من أن جميع القوى السياسية المناهضة لحلف بغداد ساندت المعلمين المضربين. بادرت الجماهير لرفض الإضراب والتنديد به. ذلك أن همها انشغل بتوفير الأموال لتسليح الجيش الوطني ورفع قدراته. فقد حدث الإضراب بعيد تطهير قيادة الجيش الأردني من الضباط البريطانيين؛ حيث استعيدت الثقة بالجيش، وارتفعت المطالبة بتسليحه وزيادة مخصصاته لتمكينه من رد الاعتداءات الإسرائيلية و"محو عار" النكبة. وبهذا التوجه، فضلت الجماهير توجيه كل المخصصات للجيش الوطني. بدأ إضراب المعلمين شاملاً في أسبوعه الأول؛ وكنا نسمع يومياً تنديد الناس بنا، نحن المعلمين المضربين. هدد رئيس الوزراء في حينه، سمير الرفاعي، المعلمين بالطرد إن لم يعودوا عن إضرابهم؛ وحفظاً لماء الوجه، قررت قيادة النقابة مواصلة الإضراب وتعليقه في الوقت نفسه إلى إشعار آخر، والعودة إلى التدريس. لم يحقق المضربون أي مكسب نظراً لمعارضة الجماهير الواسعة للإضراب.

حالياً، ومع تغير الأجيال، في مناخ ملبد بالهزائم، تكتسب دعاية

من مساق "الفنون والعلوم".

حزب التحرير جمهوراً يتسع باستمرار؛ إذ مع توالي الهزائم والنكسات الناجمة عن سوء تقدير قوى العدو، والدخول معه في صراعات مسلحة غير متكافئة، تجد الدعاية المضللة والتبريرات الملفقة رواجاً لدى الجمهور المحبط بخيبات الأمل. يجد التحريريون من يصدقهم إذ يزعمون أن كل جهد يبذل عقيم دون قيام الدولة الإسلامية!

الثقافة المضادة

بعد إخماد الحماس الوطني تشرع الثورة المضادة في تضليل الوعي وتخديره من أجل تدجينه وتطويعه. ويتم ذلك بوسائل عدة، تستهل ببطش لا رحمة فيه للقوى السياسية المسلحة بالوعي والرؤية المستكشفة. وبعد النجاح في حرمان الجماهير من القيادة الواعية، وضرب معنوياتها، يأتي مسلسل وسائل تشويه الوعي مثل الإرباك في متاهة الحيرة، وترويج حاجات ومصالح مزيفة، وإشاعة قيم ومعايير تحرف المواقف عن استشراف مبادئ التحرر والتقدم والديمقراطية، تسليط حقائب إخبارية تشيع اليأس في أوساط الجماهير من خيار التقدم وتروج لخيار الإذعان لقدر الرأسمالية، وغير ذلك كثير من أنماط الوعي الزائف. ومن الحقائق الاجتماعية المعروفة أن نمط الحياة وأسلوب كسب العيش يولد ثقافة موازية. يحدث التوليد والتفقيس داخل حضانات مواتية يؤهلها نمط التربية ورسالة الدعاية الإعلامية. التربية والثقافة المتصلة تخلقان بيئة تحتضن القيم والمعايير عبر الكلمة والصورة وأسلوب التدريس التلقيني ونسخ المعرفة وتمرين الذاكرة بدل التفكير السليم، وعبر الصورة التلفزيونية المخادعة، وكذلك من خلال مواد التسلية والتحليلات الإخبارية والبرامج الفنية.

ملاحظة استخلصها أبو علي شاهين أثناء عمله في السعودية، قال في سهرة الحوار الممتدة طوال الليل: حدث تغير على نوعية الموظفين القادمين من الأردن إلى السعودية. سألت: كيف؟ وما طبيعة التغير؟ قال: تبدلت للأسوأ بعد العام 1960. حتى ذلك التاريخ ظل يفد موظفون من الأردن على درجة من الوعي والمرونة الاجتماعية وقدرة المبادرة. كانوا أفضل تأهيلاً لخوض غمار الحياة.

قلت إن النشاط السياسي شبه العلني، الذي استمر حتى العام 1957، قد سمح لطلبة الإعدادي والثانوي بالانخراط في الحياة الاجتماعية والتزود في سن مبكرة بالثقافة السياسية؛ وتغيرت الحال بعد فرض الأحكام العرفية العام 1957؛ إذ طرد من سلك التعليم عدد كبير من المعلمين القوميين واليساريين. طوال النصف الأول من عقد الخمسينيات، ظل ينتعش النشاط السياسي، ويجتذب شرائح من المعلمين والطلبة والمهنيين؛ كان السخط يعم أوساط الشعب إثر النكبة، والتفّت الجماهير حول الأحزاب المناهضة للامبريالية. ثم حدثت طفرة بعد المظاهرات التي أسقطت حلف بغداد (كانون الأول 1955) تصاعد على إثرها النشاط الحزبي، فتحولت المدارس إلى ورش تربية سياسية للشباب الصاعد. طبيعي أن تنشأ بين المعلمين والطلبة علاقات الاحترام المتبادل، يشعر الشباب الصاعد، من خلالها، بالكرامة ويمتلكون حس المسؤولية. اكتسب التعليم طابعاً ديمقراطياً، نشطت بفضله الذهنية وتضاعفت طاقتها الاستيعابية. في هذه السن، تم استيعاب الطاقات الشبابية في العمل الوطني، وتزودوا بالمعارف السياسية، وأتيح لهم تطوير علاقاتهم الاجتماعية مع المدرسين وداخل المجتمع. الإنسان هو مجموع علاقاته الاجتماعية؛ وعندما تتشعب العلاقات الاجتماعية وتتنوع تزداد العناصر التركيبية للشخصية، بينما تضييق العلاقات الاجتماعية يسطح المعرفة ويطبع الشخصية بالسذاجة ومحدودية الأفق.

قلت . . هذا الجيل، المزود بقوة الطبع وعلو الهمة، استمر يدخل سوق العمل حتى العام 1960، وبعد ذلك الحين راحت تتخرج من المدرسة الثانوية أجيال مطبعة ومروضة: حظر مناخ الكبت السياسي النشاط السياسي، وبخاصة داخل المدارس تحت طائلة الاعتقال والسجن لمدد غير محدودة. من جديد، عاد الأهل يمارسون سطوتهم على الأولاد وعارضوا نشاطهم السياسي. مناهج التدريس تقتصر على الدراسة النظرية، وتخلو من الأنشطة العملية؛ فلا تؤهل الناشئة لدخول واثق ومتمكن إلى الحياة الاجتماعية. الممارسة العملية ترسخ المعارف في الأذهان وتحولها إلى عناصر ثقافية موجهة للسلوك. والتعليم المدرسي خلو من النشاط العملي، الذي ينمي ثقافة الفرد ويعوده منذ الصغر على تحمل المسؤولية. ترك المجال للمعلمين والمديرين والمشرفين التربويين من جماعة الإخوان المسلمين كي يؤثروا في ذهنية الناشئة ويهيئوها للخضوع والإذعان. شكلت عناصر الإخوان المسلمين معظم الكادر الإداري والميداني لوزارة التربية والتعليم، وكانت فترة انتشار ثقافة الاستعمار الجديد. بات القهر والقسر يشوبان علاقة المعلم بالتلميذ، ويتسرب إلى المجتمع نهج علاقة اجتماعية. التعليم البنكي، والتوصيف للعالم التربوي باولو فريري، يودع المعلومات لكي تسترجع على أوراق الامتحان. هو استهلاكي لا يدخل عاملاً تركيبياً في الشخصية؛ إنما يستهلك على ورقة الامتحان. علاوة على أن نموذج التدريس يقتل الإبداع والقدرة على التفكير، حيث يركز على الحفظ والتلقين. التربية، منهاجاً وأساليب تدريس، تؤهل الناشئة للإذعان وانتظار التعليمات والتطفل على المعارف الجاهزة. قصر المعلمون وكل المشرفين على العملية التربوية الجهد التعليمي على مواد البرنامج؛ وهذه ظلت موضع الانتقاد نظراً لاغترابها عن الحياة الاجتماعية وحاجات المجتمع. ومن لا يواصل الدراسة بعد الثانوية –وهي نظرية في معظم الكليات– تضيع عليه سدى اثنتا عشرة سنة من حياته، ويضطر لممارسة العمل العضلي من البداية.

ونواجه في سنوات لاحقة الطلاب يتهربون من الصفوف، وتبرز مشكلة التحرش بالطالبات والتسرب من المدرسة. فقد هبط وعي الأجيال بتدهور عملية التربية، بما تحتويه من مناهج وطرق تدريس وإدارة مدرسية، إدارة الضبط والربط.

بضرب الحركة الشعبية، سبق الأردن غيره من أقطار المنطقة. وجدتها قوى المحافظة وحلفاؤها في الخارج، وقد شهدوا سيطرتهم تترنح وتكاد تسقط في حقبة النهوض الجماهيري، فرصة لم يفوتوها لحجز الجماهير في بيت الطاعة. لجأوا في البداية إلى القهر المادي، بقصد الترويع، ثم استخدموا أسلحة التضليل، تارة سلاح الدين، وأخرى سلاح الاختلالات الاجتماعية والخلقية، فتعايش التدين الشعبي وما زال مع الانهيار الخلقي. استعين في البداية بحركة الإخوان المسلمين. جرى ذلك في الأردن، ثم في مصر برعاية السادات. في فترة الخمود

تغيب الحصافة وتنطلي على الجمهور أدوات المعرفة المتخلفة من قياس واستخلاص مبتور وأنصاف الحقائق.

غير أن المسار الهابط للحركة الثقافية اندفع بضغط التوجه العالمي للإمبريالية لضرب التحرر الوطني، وإرجاع بلدان القارات الثلاث إلى حظيرة الكولونيالية. تضافر في هذا الاتجاه تدبير الانقلابات العسكرية، وتصدير نمط الاقتصاد الاستهلاكي، وضخ الثقافة المنحطة عبر قنوات مستحدثة ظهرت مع الثورة الصناعية الثالثة. جرى توظيف ثورة المعلومات وثورة الاتصالات بهدف فرض الموافقة وتطبيع الرأي العام العالمي مع الإستراتيجية الكونية الجديدة للعولمة. وكانت حرب حزيران إحدى محطات الهجوم الإمبريالي على حركة التحرر في منطقة الشرق الأوسط.

انتكس النهوض الجماهيري في العالم العربي كله إثر هزيمة حزيران. سرى إحباط عام استثمرته الحركات المناهضة للتيارين القومي واليساري، وبدأ مد التيار السلفي، الذي فاض على المنطقة إثر الثورة الإيرانية وإعلان الجمهورية الإسلامية في إيران. انهار المشروع القومي فانتعشت القطرية. ولم تكن الوعاء المانع فتشظت القطرية إلى انتماءات عشائرية وطائفية. انكفأت الجموع إلى الانتماءات الضيقة المروج لها بقوة. شرعت البيروقراطية المحلية ترعى الاقتصاد الاستهلاكي وتروج لقيمه في المدرسة وعبر منابر الإعلام. والتبذل الاستهلاكي يستفز مشاعر التدين لدى الجماهير؛ وتنهمر الثقافة المنحطة ودعاية الوعي الزائف عبر قنوات الميديا الإمبريالية. في الأقطار العربية كافة، نجحت البيروقراطية في تضليل الوعي وتقديم انتماءات زائفة وثقافة مشوهة. فهذه القوة المحافظة التي أمسكت بالأجهزة السياسية والإعلامية والتعليمية، صبت كامل اهتمامها على إبهار المهمشين وإغرائهم بالاستهلاك؛ وفي الوقت ذاته، تعهدت النزعات الدينية في المدرسة وبرامج الإعلام، لدرجة أن تناوب الدرس الديني والبرنامج الإباحي على الشاشة التلفزيونية. قدم الإعلام الموجّه تفسيرات تعصبية للدين والقومية والطائفة والقبيلة وغيرها من الانتماءات والهويات المتخلفة. ونظراً لأن الحركة القومية لم تحدث تغييراً نوعيا في الوعي الاجتماعي، إذ قصرت دعايتها على تهييج الحماس الشعبي، وخولت بيروقراطيتها تنفيذ القرارات السياسية لمصلحة الجماهير مثل الإصلاح الزراعي، ومجانية التعليم؛ فأبقت الجماهير الشعبية مهمشة وبعيدة عن صنع القرار. لم تع الجماهير الاستحقاق الديمقراطي ولم تستوعب دورها كبانية للحَياة الجيدة وصانعة التغيير التقدمي، بتحولاته الاجتماعية الجذرية. وفوتت حركة النهوض القومي فرصة يصعب تعويضها لإجراء إصلاح ديني ينقيه من فقه الظلامية الاستبدادي. كان من السهل بزوال عبد الناصر أن تزول إصلاحاته التقدمية لصالح الجماهير، وتستعيد قوى المحافظة السياسية نفوذها وهيمنتها، ثم انهار المد القومي التحرري.

الطائفية نصير العولمة

حسب تفسيرات الانغلاق القطري والطائفي، طرحت الذات الدينية أو الطائفية على أنها مستهدفة بالتحقير والكراهية، وأنها معرضة للتدمير من قبل عدو يضمر الشر للدين. بهذا التبسيط المخل جرى إغفال حقيقة باتت من مسلمات السياسة: فبينما تم دحر الغزاة الفرنجة في العصر الوسيط، مضى الشرق والغرب في مسارين متناقضين: جمود الشرق مفروض بقوة الاستبداد واقتصار الحكم على توفير المنافع الأنانية للحكام وبطانتهم، ما أبقى على نماذج اقتصاد العصر الوسيط ومعارفه المبسطة وقيمه ومعاييره؛ مقابل سيرورة مجتمعات الغرب في معارج الرقي الاقتصادي والثقافي – العلمي والسياسي والتربوي. كان لا بد أن تنشأ بين الشرق العربي والغرب الأوروبي علاقة تبعية كولونيالية وهيمنة متسلطة. في عرف التيار السلفي ذاته، لم تتوجه السيطرة الكولونيالية بهدف اقتصادي وإستراتيجي يميز مرحلة في تطور الرأسمالية، إنما بهدف أيديولوجي محض. إن طمس الحقائق واختلاق المبررات غير الموضوعية قد ساند الثقافة التبريرية للإمبريالية. وساندها أيضاً طرح الدين وحده قوام الهوية، من قبل التيار السلفي بروح افتقدت المسؤولية، غير مقرون بالطموحات التحررية والكرامة القومية والتطلع لحياة إنسانية ونظام حكم ديمقراطي وتطوير الكفاءات العملية وتطوير الاقتصاد الوطني وعشرات القيم المقترنة بالتحرر والديمقراطية والتنمية. عبر الضرب على وتر المشاعر الدينية، تتم قيادة الجماهير المهيجة بشعارات تضليلية كي تقتل بوحشية وتتفنن في تمزيق رموز العدو وقيمه، بما في ذلك أجساد أصحابه مهما كانوا من بسطاء الناس بدورهم، مع الحفاظ على العلاقات الاقتصادية والنماذج الاقتصادية المحلية المتخلفة، التي تعزز التبعية الاقتصادية للمراكز الرأسمالية المتطورة.

مع ذلك، فإن وسيلة تضليل وعي الفقراء والمهمشين واستقطابهم لا تقتصر على الدعايات التبسيطية. بات تشكيل الوحدات المسلحة يدخل في العملية سلاح المال والتخويف للتوريط في العنف.

وإذا ما حوصر التفكير السليم في عزلته تتواصل الانهيارات. بات المصير العربي مهدداً برمته. قوى العولمة تغتنم كل سانحة كي تشن الحروب، وهي تتقن التسلل داخل حركات العنف كي تتلاعب بها وتوجهها باتجاه "الفوضى البناءة". ضرورة التسلح بالوعي والتنظيم تمليها المواجهة العنيفة مع الاحتلال، كما تمليها أساليب ملتوية وتحايل هادفة لضرب الحركات الوطنية والثورية من داخلها. الجمهور قادر على تمثل أسمى الأخلاق والمثل؛ حتى الأوغاد يمكن أن يلتزموا بمبادئ أخلاقية إذا ما انخرطوا في الجمهور، بشرط توفر مثال القيادة التي تنقل الوعي للجمهور وتستقطبه حول مثال وطني جلي وملهم. إن ضحالة الثقافة لدى العناصر مقرونة بفقدان الضبط سهلت الانجرار إلى ممارسات نزوية متغطرسة، عمقت التنافر بين المقاومة والجماهير الأردنية، ما أدى إلى الانزلاق بعفوية إلى صدام أيلول العام 1970. وتواصل المسلك نفسه في لبنان، وأدى إلى نتائج شبيهة. ثم وفد إلى الضفة محمولاً على بساط السلطة.

خرجت من سجن بيت ليد مبعداً إلى الأردن. وصلت عمان في تموز 1970؛ وكان أول ما شدهني هو الفلتان والتسيب، بعض مستنقع العفوية الذي نغرق فيه مبتهجين بالفهلوة، نتحايل ونناور ونخدع أنفسنا، هو الذي أودى بنا بلا حذر في ورطة حزيران، الثمار المرة الكريهة لتغييب التنظيم والوعي. كانت العناصر مهتاجة نزقة تتحرش بالماشي، وكأنها منومة مغناطيسياً تستعجل أيلول، تحرض الأردنيين، جيشاً ومدنيين، ضد المقاومة الفلسطينية والفلسطينيين عامة. في الشوارع عناصر فالتة تستفز وتتحدى، تطيش سهامها في كل اتجاه. من

السهل على العناصر الفالتة جر الجمهور إلى أعمال التدمير وخرق القانون وتخريب الممتلكات العامة والخاصة حسب مثال يرشده وطقوس تمارس أمامه. وخصائص الجمهور الذي لا توجهه قيادة واعية تحسن التنظيم والترشيد، هي سرعة التصديق والسذاجة والمبالغة في العواطف، وفقدان الإرادة والتفكير داخل صخب التيار الشعبي المنطلق الجموع. وخصائص القيادة وتوجهاتها تحدد اتجاه اندفاعة الجمهور. وحالما يتلقى الفرد داخل الجمهور الكلمة، فإنها تتحول في الحال إلى صورة موحية. أما كلام العقل ومحاولات الإقناع، فهي تنفّر الجمهور المهتاج. ومفهوم المستحيل يذوب حين يشعر الفرد قوة الجمهور وعدده.

في الأيام الأولى من الحرية المقيدة بالإبعاد، حضرت ندوة لمناقشة مبادرة روجرز. راح المتحدثون يتبارون في التنديد بعبد الناصر والتهجم على الحل السلمي: يا ثورتنا هلي هلي، خلي الحل السلمي يولي! ولما جاء دور الكلام لمن يرفض التذيل للجمهور، ولا يتعامل بعفوية مع شأن خطير، مطالباً بتغليب لغة العقل، قوطع بالهتافات، ولم يسمح له بمواصلة الكلام. أسكت بين الصفير والصياح المتشنج، وتلقى السخرية مثلما تلقى عبد الناصر السخرية من الجمهور نفسه، إذ وضعوا صورته على جحش وساروا به في مظاهرة اخترقت شوارع عمان حتى مخيم الوحدات. وتطايرت التهديدات "ببنادقنا سوف نجهز على الحل السلمي"، "كل شيء يتقرر من فوهة البندقية"، و"لا صوت يعلو فوق صوت المعركة". ضاع العقل والرشاد عبر الهيام بالبندقية. يتوهم المقهور، وقد امتلك بندقية، أنها تجسيد الغلبة والشوكة، وهي جواز ممارسة القهر. ومع غياب الوعي تتحول البندقية بيد المسلح إلى أداة فرض الموافقة، ترتد فوهة البندقية نحو الجماهير ورفاق السلاح. انحسر التفكير السليم وقبع في ركن معزول؛ افتقدت الموضوعية السياسية. ومن فوهة البندقية تقرر كل شيء، بما في ذلك المزيد من الهزائم.

على الصعيد الدولي انبرت مؤسسات الإمبريالية الاقتصادية وإعلامها ومنتجات ثقافتها، منذ أواسط عقد الستينيات من القرن الماضي، تقدم نمطاً مشوهاً من النشاطات الاقتصادية والثقافية تروج للنزعة الاستهلاكية، وتزيف الوعي، وتقوض الروح. يفتقد التنظيم والتثقيف فتهبط الجموع في منحدر الفوضى والعفوية، وتهيأ لها نماذج مشوهة من الكسب وسبل العيش فتتشوه قيمها ومعاييرها. ومن أخطر القيم المسربة بإتقان، مثال مشوه وانتماء زائف. غدت قيمة الفرد تتحدد بنوعية الحياة ونموذج الاستهلاك. وهذه تحدد انتماء الفرد. الموقع الطبقي لم يعد العنصر المحدد للعلاقات الاجتماعية؛ إنما نمط الحياة المرفهة ونمط الثقافة التي توقع الجموع في حبائلها. الحركات اليمينية والدينية والقومية المتطرفة انبهرت بالرؤية الجديدة ورفعتها إلى مرتبة المرشد للحياة؛ وساهمت في نشرها لأنها توحد الجماعة خلف أعلام تجيّش لها العواطف وتسهل التضليل والهيمنة علي عقول الفقراء والمحرومين وتستخدمهم في بناء جيوش سياسية أو عسكرية تجري وراء المثال الموهوم، وتغيب قيم العدالة والتقدم والإنسانية. تجاهلت هذه الحركات أن السمة الأساسية للفكر الإنساني، منذ فجر التاريخ، وعبر العصور كلها، هي تمجيد الحياة، واعتبار أن الإنسان هو القيمة الحقيقية للوجود، وأن حقوقه وحرياته وسعادته هي محور كل المشاريع وكل الحركات الرامية إلى إصلاح حياة البشر، وجعلها دائماً أفضل مما تكون عليه. ولا تستثنى من هذا الفكر الإنساني الرسالات الدينية التوحيدية. فهي دعوة للكرامة الإنسانية والسلوك القويم، وإعلاء للأخوة الإنسانية ولعلاقات التضامن والتكافل الإنساني.

كما بادرت الصهيونية في القرن التاسع عشر لتبنّي المعيار الثقافي للانتماء، كي تجرف في تيارها بشكل خاص الشرائح العمالية والمثقفين، وتنتزعها من مجتمعاتها لتتطوع في خدمة أهداف الاحتكارات الإمبريالية اليهودية ومن كل القوميات. وكان اليسار الصهيوني المزعوم تمويهاً للمثال يغلف النزعة العنصرية بورق لماع مخادع. فالصهيونية حركة يمينية تخدم الرأسمال، تموه نزعتها العنصرية تحت الشعار المنافق: "الاشتراكيون اليهود يخونون طهارتهم الثورية". إذ عليهم، وفق مزاعمها، الهجرة أولاً إلى وطن الآباء وينشئون الدولة، ثم التحول إلى بناء مجتمع الاشتراكية. جرفت الحركة الصهيونية في تيارها الملايين ممن انفصلوا عن مجتمعاتهم التي يعيشون في أوساطها وحملوا إحساساً مشوهاً بالانتماء إلى الإرث الثقافي المشترك الذي يؤهلهم لـ "الصعود" إلى أرض الآباء.

واستطاع الصهاينة "اليساريون" تمويه حقيقة الحركة الصهيونية لدى الليبراليين العرب في بدايات القرن الماضي. فهذه الشريحة المنبهرة بالغرب رأت بنظر حسير عدالة كل ما يدعو إليه الغرب، فهو المثال الذي يجدر التطلع للاحتذاء به. وحيث كان دعم الصهيونية ومشروعها قاسماً مشتركا لحكومات الغرب، فقد ارتأته الليبرالية العربية عادلاً كذلك. وفي الوقت الراهن يكرر الليبراليون الجدد "مأثرة" أسلافهم، ويرون كل ما يصدر عن السياسة الأمريكية ديمقراطياً وعادلاً؛ ويرون كل مشاكل المنطقة ناجمة عن التطرف والممانعة، ويؤمنون أن الصراع القائم ثقافي –حضاري، لا أثر فيه لجشع الاحتكارات عابرة الجنسية وأطماع الهيمنة الكونية، وما تستتبعه من نهب واستحواذ على المصادر والموقع الإستراتيجي.

من جانب التحم الخلل التنظيمي مع فقدان الوعي في مركب الفجاجة والنزق السياسي. في الفلتان الأمني والجريمة المنظمة والصراع العشائري وانعدام الأمان والأمن، وغيرها من الممارسات يتجلى الاستبداد الفكري والسياسي، وغياب الوعي والتنظيم وعدم تجذر المؤسسات والعلاقات الديمقراطية في العمل الوطني والاجتماعي. وحيث يسود التسيب التنظيمي، ويغيب النسبي في حضور المطلق، تغدو نسبية الأفكار وحوار الآراء زائراً غريب الوجه واللسان. تلك هي كوميديا النضال الفلسطيني والتضحيات الفلسطينية على تتالي العقود. وتلك حكايتنا في مواجهة المخططات دقيقة التنظيم ومتقنة التخطيط. طرد النضال الفلسطيني من الأردن، وأجبر على مغادرة لبنان، وواجه الخيبة على أرض الوطن. ولم تحن بعد لحظة التوقف في مراجعة نقدية.

التشظي الحاصل استمرار تشظيات لازمت المجتمع الفلسطيني. فقد عانى من انقسام بين قيسية ويمنية إبان الحكم العثماني، واتخذ في زمن الانتداب شكل العداء الإسلامي –المسيحي، وبين الريف والمدينة وحزب الحسينية (الحزب العربي بزعامة الحاج أمين الحسيني) وحزب النشاشبية (حزب الدفاع وزعيمه فخري النشاشيبي). وكذلك انقسامات حسب المناطق وانقسامات طبقية . . . الخ، وترجمت الانقسامات صراعات

ومناورات خفية مكبوتة وظاهرة مفضوحة! ولكن لم توصل الخلافات والتشرذمات الشعب الفلسطيني إلى حافة الدمار النهائي، مثلما هو عليه في الوقت الراهن. من إسقاطات الاحتلال، ونهج القهر الذي مارسه على مدى عقود أربعة، وحيث قوة الخصم العاتية يصعب اختراقها، ترتد تصرفات الميلشيات إلى الذات، عدوى لمرض استباحة القانون وتغييب المؤسسات، حين سدر المسئولون في الفساد والإفساد. تمسخ السلطة (والبندقية سلطة وهمية) في تجليات النفوذ والجاه والقوة والمال. لم يتورع العديد من المسؤولين عن النهب العلني للمال العام والتباهي بفجوره. والظاهرة حصاد العجز أمام الاحتلال وحصاره وسياسة التجويع التي اتبعها.

ومن جانب آخر، ينشط العنف المقاوم للاحتلال نمط عبادة لا تستشرف تحقيق النصر بقدر استشراف الشهادة. بات شعار "النصر أو الشهادة" شعار اندماج السياسة بالدين، ويختزل في مواجهة مفردة صراعاً ضارياً يتطلب تعبئة الجمهور وتثقيفه في نضال النفس الطويل والتجربة الكفاحية الغنية وإتقان جدل الإستراتيجية والتكتيك. ظاهرياً تبدو مفارقة أن الاحتلال يضيق الخناق على الناس ويحظر العمل داخل إسرائيل في وقت يجري استقطاب الجوعى والعاطلين للانضمام إلى الميليشيات. أما النظرة المتأملة فلا تعجز عن رؤية المشروع الصهيوني يرعى دوماً بيئة المماحكة بالسلاح. في هذه البيئة يجري تهيئة الجموع تحت ضغط الجوع وشظف العيش وباسم تبادل إطلاق النيران، لتهيأ طعاماً لصواريخ الاحتلال ومدافعه.

في العراق، حدث الغزو الأمريكي الإجرامي في ظرف تميز بإنهاك قوى الديمقراطية. سيطرت ذهنية القهر على الجموع واندفعت الجماهير في حمى الاحتماء بالطوائف والعشائر مع انهيار الدولة وليس النظام فقط. وفي كنف الانتماءات الضيقة/ انتعشت غريزة "الانتقام" و"الاجتثاث"، والتفت الجموع حول التنظيمات الطائفية، حيث استنفرت الطائفية ضرتها المقابلة. تم تسريح الجيش العراقي بكوادره عالية المهارة والتدريب، وظلوا دون عمل أو وظيفة. عانى هؤلاء مرارة الفقر في البادية والمدن. وكان من السهل تجنيدهم في إطار ميليشيات وعصابات من كل الأنواع تنتشر علي كل لوحة الانتماءات العرقية والطائفية والدينية والقومية. فهذا التجنيد يمنحهم لقمة عيش وشعوراً بالأهمية والاقتدار؛ فوق أنه أعطاهم أيضاً هدفاً بدأوا يظنون أنه سام وقيّم لأنهم حرموا الثقافة الديمقراطية وقيم الثقافة الإنسانية؛ الوعي المشوه اعتدى على المصلين داخل الجوامع والحسينيات؛ وقتل الناس بالجملة ودون تمييز في الشوارع والأسواق، باسم الإسلام، أو المبدأ الشيعي أو السني أو القومية أو أي شيء آخر. وما أسهل التحريض على المجهول ونعته بكل ما يعبر عن الشر، حتى يستقر الاعتقاد أنه الشر بعينه؛ فتغدو تصفيته سبيل التقرب للرب! يبدأ الناس القتل خوفاً من الآخر واستجابة للحاجات المادية الصرفة كالحماية والوظيفة والدخل، ولكن ما أن يبدأوا القتل حتى تتملكهم حمى القتل!

وحيثما تضعف الدولة تنتشر المليشيات تملأ الفراغ. وما وقع في غزة مثال صارخ. فتنظيم "حماس" شكل تياراً هامشياً في السياسة الفلسطينية طالما كانت حركة "فتح" تمسك بالزمام، وطالما بقيت مستويات المعيشة معقولة وفرص العمل ولو في إسرائيل متاحة لعشرات الآلاف من سكان المخيمات الفقيرة وذوي المهارات المحدودة والتكوين الثقافي البسيط. ثم حدث أن أفشلت إسرائيل مفاوضات التسوية، وواصلت نهج القمع وعمليات التوسع الاستيطاني؛ بل تعمدت التضييق على مصالح الناس وتنقلاتهم. لم تقدم سلطات الاحتلال أدنى المؤشرات على نوايا احترام الطموحات المشروعة للفلسطينيين، ولم تعطِ أملاً ببناء علاقات احترام مع الجماهير الفلسطينية، أو تحقيق انفراج في العلاقات المتوترة منذ عقود. أغلقت إسرائيل مجالات عمل الفلسطينيين في مشاريعها. تعرض العمال البسطاء للجوع، وانتشرت البطالة بين المتعلمين من أهل المدن والقرى والمخيمات. ومع اشتداد عنف الاحتلال، وحصاره توفرت الفرصة لـ"حماس" كي تقدم خدماتها من خلال الجمعيات الخيرية التي تدفقت لها أموال الدول الغنية في الخليج. راقبت إسرائيل التحولات وشجعت عواملها. كتل بشرية ملتهبة تحت وقع ضربات الاحتلال الوحشية والتجويع والحصار وفرت لها الأسلحة دون توفير الثقافة والتربية الأخلاقية. والدين، على الرغم من أنه وعاء الأخلاق، فإنه إذ يوجه للجمهور المتهيج، يختزل في شحنات عاطفية تحريضية ضد عدو يجسد الشر كله. سنوات قليلة وتحولت "حماس" إلى أقوى تنظيم في غزة الفقيرة والمحرومة والمعزولة عن العالم. وعندما تعين على هذه الكتلة الملتهبة من المحرومين والفقراء الذين صاروا فجأة جنوداً في ميليشيات أو أتباعاً في منظمات تابعة لـ"حماس" الامتثال لتعليمات شيوخ المخيمات اندفعوا سيلاً جارفاً للتنكيل بالشر المتجسد في "فتح" وليس إسرائيل! بل اشتطوا في الغلو وحرقوا وحقروا الرموز الوطنية الفلسطينية المقدسة كالعلم، وتمثال الجندي المجهول، وبيت ياسر عرفات، لمجرد أنه ليس رمزاً إسلامياً وأنه إرث من العلمانية! يصعب حيال مثل هذا الفلتان أن تبقى هيبة لسلطة، أو ينفع ترياق. طالما الانتماء العشائري والطائفي مقدم على الانتماء الوطني، وطالما حق المواطنة مؤجل ويئن الإنسان العربي تحت الانسحاق الاجتماعي والاستلاب السياسي، فلن ترتفع للعرب هيبة في نظر الخصم، وستظل اليد الممدودة للسلم معلقة في الهواء.

المثقف جزء واع مما يعانيه المجتمع من انكسارات وإرهاصات وتحيزات تعتبر نتيجة للوّاقع الاجتماعي المأزوم والمشوه. وسواء أكان المثقف متخصصاً أم مسكوناً بالشأن العام، فإن مهمته تقتضي خوض صراع متواصل مع ذاته، تمكنه من إدارة ناجحة للتناقضات الاجتماعية المنعكسة على ذاته، التي تؤثر بأشكال مختلفة ومتباينة على إنتاجه المعرفي وعلى ممارسته السياسية المباشرة؛ فلكي يدخل إنتاجه الثقافي في قوام الحركة المحولة للواقع، قوة دافعة وطاقة تنوير، يطلب منه الإلمام بالواقع وعوامله المتدافعة. ونظراً لأن المثقف يعيش ويبدع داخل مجتمعه، فالمثقف الفلسطيني نتاج الواقع المأزوم والمحكوم بأزمة عامة ومركبة.

هل تتشكل قاعدة ممارسة ديمقراطية يتلاقى فوقها ويتفاعل فيها المثقفون مع كل من التشكيلات السياسية والمدنية ؟ كيف نكسر الحلقة الشيطانية التي حاصرت الجماهير داخل الجدران الملتهبة بالهوس الطائفي والهيام بالبندقية؟ كيف نعلي قيم الثقافة والوعي الاجتماعي الإنساني فوق شيطنة الخصم وقيم الكراهية والعنف؟ كيف نوصل الجماهير إلى الثقة بالذات والعمل ضمن حركة مستقلة وتدمج مصالح الأفراد بالمصلحة الوطنية في التحرر والتقدم والديمقراطية؟ السياسية بلا ثقافة دوران في العتمة؛

كما أن الثقافة بلا سياسية خيال. وما نحن بحاجة ماسة إليه هو تطوير وتفعيل الممارسة السياسية بالاسترشاد بالثقافة الملتزمة بقضايا الإنسان والوطن. ينبغي وضع حد للقطيعة بين الثقافة الديمقراطية والممارسة السياسية الديمقراطية، وذلك عن طريق ربط الفكر بالعمل والعمل بالفكر، على قاعدة المادية الجدلية، والتعدد والتنوع الديمقراطي.

تكمن أهمية المثقف الملتزم بمصالح مجتمعه، بقدرته على محاورة الواقع المتغير وتحديد النسيج المتشابك للفكر السياسي والاقتصادي والاجتماعي الملتزم بمصالح ضحايا نظام العولمة وتجلياته وتعبيراته المحلية. ينتظرنا مسعى دؤوب لتحرير ثقافتنا من محبسها وتطويرها. وهذا يتأتى من خلال إبداع الثقافة الحرة المتطورة، وإعمال العقل المودع بأجسادنا وتحريره من قيوده وتنشيطه بممارسة النقد في ما يحيط بنا ويصدر عنا. أما إذا سلب العقل قدراته على النقد والابتكار والإبداع والتجديد، فإنه يتحول إلى جثة هامدة لا حراك فيها.

لا تكمن ضرورة الثقافة في التأسيس الموضوعي للممارسة السياسية فحسب، بل في نقل الممارسة السياسية القائمة على العنف والاحتكار والبراغماتية الانتهازية . . . من أجل فعل وممارسة سياسية ترتكز على قيم أخلاقية تكرس المصداقية والشفافية. الثقافة حقل إبداع يكثف الواقع المتعين في تنوعه وتناقضاته. الثقافة تعبير مكثف للسياسية وهي تطعّم السياسة بالمعرفة والأخلاق. والمرحلة الراهنة تتطلب عملاً ثقافياً متخصصاً وأكاديمياً يقوم على الاختصاص، ويربي الباحثين المهتمين، ممن يسهمون في التأسيس لمنهجية علمية تستند إلى المعرفة والفكر النظري والتعميمات الفلسفية. وبذا تنجح الثقافة ليس في تنوير السياسة وتسييس الثقافة بتوجيهها نحو موضوعاتها وهمومها وقضاياها فحسب، إنما في تطعيم السياسة بالمثل الأخلاقية والقيم الإنسانية.

سعيد مضية
ناقد فلسطيني من الخليل

من مساق "التعبير والرسوم".